وجاء في بعض كتب السيّاح انّ اسمها عند الاتراك «قاروق» وانّما القاروق لا اطراف له تستر العيون مع اختلاف اجناسه وهيئاته

﴿اسماء القبعة بالعربية﴾ اسماء الملابس عند العرب مشتقة غالباً من لغات اجنبيّة. فأطلق البعض على القبعة اسم القلنسوة واللفظة من اصل اعجمي شاعت منذ أيام الدولة العبّاسيّة وقد اختصرها العامّة بالقلوسة وهي في عهدنا على شكل اسطواني مستدير مطرّفة او مقرّنة في اعلاها

وأشيع منها اليوم القُبّعة ويخفّفونها بالقَبّعة وان كانت القُبّعة في الاصل كما جاء في تاج العروس «خرقة تخاط كالبرنس يلبسها الصبيان»

وكان ملبوس القضاة على رؤوسهم قبّعة واسعة كما تراها في الشكلين ١ و٢. وكانوا يدعونها بالدَنّيّة لشبهها بالدَنّ فتستر اطرافها السفلى العيون

اما البرنيطة فهي طليانيّة الاصل (barreto) او (borreto) اشاعها الايطاليّون نزلاء اساكل الشرق في سوريّة ومصر. ولعلّ للبرنس اتّصالاً بهذا الاصل وهو يأتي بمعنى القلنسوة. قال في التاج: البرنس القلنسوة الطويلة. والله اعلم

وعلى كل حال يظهر ممّا سبق انّ القبعة ملبوس الرأس عند الفرنج أخذها العرب والاتراك في بعض اجيالهم. وإن لبسوها اليوم يمكنهم الاستناد في لبسها الى تقاليد سابقة في أمّتهم

سياحة رسولية في بلاد حوران

بقلم حضرة الاب فردينان تونل اليسوعي (تتمّة)

الزبيرة والزبائر

هما خربتان موقعهما جنوبي خبب بشرق في جرود اللجا وما بينهما مسافة بضع دقائق للماشي زرتهما فوجدت بين الصخور خيم اعراب اللجا فدخلت خيمة احدهم فرحّب بي على فقره المدقع وأقعدني على عباءته وقام يحتطب القهوة ويدقّها ثم أغلاها

وسقاني وسائر الاعراب الذين اجتمعوا للقائي ومحادثتي وبعد ان شربنا القهوة سألني احدهم : من اين انت ؟ وماذا اتيت تفعل في حوران ؟

قلت : انا اتيت من رحلة الى حوران لاساعد المسيحيين فيها على اقامة واجباتهم الدينية

— ألست خورياً ؟

— بلى . لكني لست كسائر الخورنة مربوطاً برعية بل انا خوري « رحالة »

— ومن يؤدي لك حاجيات الحياة ؟

— انا اليوم في ضيافة الحورانيين يقدّمون لي الطعام والسكنى . امّا مصاريف سفري فلا يبخل الله عليّ بها اذ انه يلهم احد كرماء المسيحيّين في اسعافي وقد تكفي احياناً حسنة واحد منهم لقد نفقة اسفاري مدة اشهر

— وبماذا تُكلّم الحورانيين ؟

— اكلّمهم بواجباتهم نحو الله ليحبّوه ويعبدوه ويخدموه فيؤول مصيرهم الى السماء دار السعادة

ثم اخذت اتلو على مسامع البدوي وجماعته وصايا الله العشر مضيفاً بعض التعليق على كل وصية . وكانت عيون هؤلاء الساكنين تبرق إعجاباً عند سماعهم ما امرنا به الله وما هو مكتوب في صفحات قلوبهم وهم يحبّون به وان يكونوا غير قادرين على الاعراب عنه : انا هو الرب الهك . . لا تحلف باسم الله باطلاً . . . اكرم الوالدين . . لا تقتل . . . لا تزن . . . لا تسرق . . . الخ . فقال لي البدوي :

— ما اجمل حديثك ايها الخوري . واقترح عليّ أن ابقى عندهم ليلتي فتُذبح لي ذبيحة وتشتدّ بيننا عُرى الصداقة والولاء

فقلت له : وان طلبتُ منكم ان تسعوا لي بارشاد القوم كما أُرشدُ الحورانيين افتسعون لي بذلك ؟ لعلّكم تزدادون مثلهم حبّاً لله وتستنيرون بمعرفة وصاياه

فتهلّلت لكلامي هذا بعض الوجوه وخاصةً وجوه النساء منهم . وقد طالما تاقت نفوس هؤلاء الساكنين الى من يكشف لها شيئاً عن اسرار محبة الله لان ما عرفوه بمجرّد العقل البشري البسيط عن وجود الخالق ووحدانيته لا يكفي ليحرّك في قلوبهم عاطفة الحب البنوي الذي افاضه الله فينا بكلمته . الذي كشف لنا بتجسّده غوامض

اسراره المخيفة . ولذلك مرّت القرون وانقشع ستر الظلام عن العالم مع انتشار نور المسيح . أمّا الاعراب فلا يزال معظمهم متسكعين في ظلال الجهل

وكاد القوم يتأثرون لكلامي لو لم يقطع حديثنا احدهم كان سبق فزار دمشق وعرف شيئاً من حياة اهل الحضر فجرى الحديث عن اعراب اللجا وتاريخهم فسألته :

أتعرف من الذي هدّ اركان هذه المدينة ؟ واشرت بيدي الى الانقاض التي حولنا

قال : همُ الكفار

قلت : انت تعني بالكفار المسيحيين الافرنج ؟ قال : نعم . فقلت : انك لمخطئ بظنك في امرين : اولاً لان الافرنج لم يأتوا قط الزبانير واينما حلّوا عمّروا عوض ان يبيدوا والشاهد الفرق بين البلاد قبل دخولهم فيها وبعده . ثانياً لانهم ليسوا بكفار لا يرميهم بالكفر الّا الجاهل المتعصب وهم يعرفون الله وصفاته وكمالاته احسن معرفة ولولا تلك المعرفة السامية لما فاقوكم علماً وغنًى وقوةً لان هذه المواقع اصلها الدين وحيث النور هناك الاشعة والنهار وحيث الظلمة هناك العتمة والليل الاسود .

وأشرت اذ ذاك انه حان وقت الرحيل فنهضت واخذنا نتجوّل بين الانقاض وهي عبارة عن جدران ضخمة طُبقت احجارها بعضها على بعض من غير ملاط . بينها بقايا برجين لا يزالان مرتفعين فيراهما الناظر من خبب . وكان سيرنا عسيراً جدًّا بين تلك الرجام ومنها ينقل الخبيبيون الحجارة لبناء بيوتهم في القرية . واذا وجدوا حجرة قديمة منقوشة وضعوها في مرأى من النظر وقد ذكرنا بعض ما شاهدناه منها

اما الاثريون فلا يتفقون في اثبات اسمي الزميرة والزبائر في الزمان الماضي ولعلّ تينك الناحيتين هما اللتان عُرفتا باسم مزرعة الحُبَيْن

بصير

قرية تحدّها شمالاً « جباب » على بعد الساعة والربع للخيّال واراضي الصنمين على بعد نصف ساعة . وغرباً قرية الصنمين على بعد الساعة للماشي . وجنوباً قرية خبب على بعد الساعة والربع . وشرقاً اراضي كريم وجباب . وهي تبعد نصف ساعة عن محطة خبب للخط الحديدي الحجازي

ومن المحتمل انها دُعيت ببصير لان النظر يمتدّ منها على القرى المجاورة لارتفاعها فوق سطح البحر فيشرف منها الناظر على كونه وسنه وغباغب ودير البخت وكفرشمس والحارة وجاسم والنخل والقنية وتبنه والمحجة وبصرى الحرير والسويداء وخبب وسور اللجا

سكانها مسيحيون كاثوليكيون ملكيون كلهم وعددهم زهاء ٥٥٠ ومنهم ٧٠ الى ٨٠ مهاجراً لم يتوفق منهم باعماله الا القليل . واصلهم من صلخد ومن عيالهم بيت ابي اللمع الصلخدي الاصل وبيت فلوح وهي الحمولة الكبرى تفرقت على مدى الايام الى بيت فلوح ومنها وناصر وسلمان ولها فروع في الادبا والسلط واسمهم الكرادشة . ولهذه الاسرة اثر كريم تاريخي نشرته مجلة المشرّة الغراء (سنة ١٩١٢) وهو رسالة حرّرها سنة ١٧٢٨ زعيم العائلة الخوري كامل فلوح من صلخد الى السيد افتيميوس صيفي مطران صيداء يسأله ارسال مرشد كاثوليكي الى حوران

وفي بصير مدرسة للذكور لها مطهان . وفيها بركة كبيرة يشرب منها الاهلون والمواشي لكنها تنشف في اواخر أيار فلا يبقى لشرب الاهلين الّا الآبار الخمس عشرة التي حفروها فيها . اما المواشي فترد مياه جباب ويدفع عنها اصحابها ضريبة ثلاثين مجيدياً . ويزرع اهل بصير اراضيهم في تشرين ويحصدونها في ايار وهي تقسم الى ٤٨ حصة وتدير مئة فدّان

وفي شمال جباب وبصير يكرم الاسلام مقام النبي اليشع واهلهم بنوا اكرامهم لهُ على ما ورد في سفر الملوك الثالث (١٩ : ١٩ — ٢١) حيث قيل ان النبي ايليا سار في برية دمشق «واتى فيها اليشاع بن شافاط وهو يحرث وامامه اثنا عشر فدّان بقر وهو مع الثاني عشر فمرّ نحوه ايليا ورمى اليه بردائه فترك البقر وجرى وراء ايليا .. وكان يخدمه »

وفي قرية بصير هذه سرّت شرذمة من رجال الامير فيصل في غرّة تشرين الاوّل سنة ١٩١٨ وهم سائرون ليحتلوا دمشق فنزل ناصر ابن عمّ الامير على احد سكّان القرية المدعوّ ناصراً فاضافهُ وحاول ان يذبح لهُ ذبيحة فلم يرضَ الامير واكتفوا بان غمسوا خبزهم في بطيخة قُطعت على صينيّة ثمّ ساروا حتى وصلوا تل مانع وهو جبل في شرقي الكسوة فاحتلّوا بطّاريات مدفع عليهم وكان هناك عساكر من الاتراك

قد كمنوا في مغارة وجعلوا يضربون منها الاعراب . فوقف الامير ناصر فانتظر ريثما ينجده العسكر الانكليزي ليواصل سيره ويدخل دمشق

الصَّنَمَان(١)

قرية الصنمين تعلو ٦٧١ متراً فوق سطح البحر شرقيّ بصير بشمال وتبعد عنها مسافة الساعة والنصف وهي بالقرب من الطريق الكبرى التي تصل دمشق بدرعا وكانت طريق الحج وهي الآن مستعبَدة عامة . وكانت عند الصنمين محطّة للخط الحديدي الافرنسي مبنية بالحجر الصلب فخربها الصنميون ايام الفتن التي اثارها الامير فيصل . فلمّا نشر الفرنسيون لواء الامن سخّروا الصنميين بنقل حجارة المحطة الى درعا لتستعمل في بناء الكنيسة الجديدة القديسة جان دارك

زرتُ الصنمين في اوائل اذار فرأيت احواضها مملوءةً ومنها تجري المياه آتية من سفح جبل الشيخ الى تينه والمجة . فيها بركتان واسعتان عمق مياههما خمسة امتار . وفي القرية كثير من الآثار القديمة تُرى على بعضها نقوشها الزخرفة الناطقة بحذق صَنَعتها . وفي القرية مدرسة للذكور لها استاذ واحد تقوم الحكومة بمعاشه

سكان الصنمين كلّهم مسلمون سنيون وعددهم يناهز الالفين اسم شيخهم فارس صالح الزغبي . ومن بيوتهم حَمُولة الفلاحات وزعيمهم الشيخ سعيد الفلاح . وحمولة القنوم وزعيمهم عبدالله الخطيب . وحمولة الدبابيين وزعيمهم حسين دياب وينتمون اصلاً الى الفلاحات . وحمولة الحيد وزعيمهم محمد حيمد . وبيت كاش وزعيمهم سليمان الكاش ويقولون ان لهم اقارب في زحلة . ومن وجهاء الصنمين ايضاً خليل نصار ويعقوب الشتار وخلف اللباد

وفي القرية تكيّةٌ معروفة بمزار الشيخ جبير . ومن غريب ما ذُكر لي ان المتصوفين من الاسلام الجباوية الذين اصلهم من قرية الجبا شمالي القنية لا يجترئون على المرور بالقرب من هذا المزار ما لم يكن معهم عمداً برأسه حليب او يكون بصحبتهم رجل مسيحي . ويروي الحورانيون ان «العجمي» ويعنون به صاحب المزار هو عدوّ للمتصوفين ويظهر لهم بهيئة مرعبة ورُبّما قتلهم او ألحق بهم اذًى . فهذا لعمري سرٌّ

١) قال ياقوت (٤٢٩:٣) : الصَّنَمان قرية من اعمال دمشق في اوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان

لم نقف على حقيقته ومن المعلوم انّ المتصوّفين جماعة انقطعوا للعبادة فان كانوا حقيقةً من الزهّاد اصدقاء الله فاي خوف عليهم من صاحب المزار والقوم يكرمونهُ كولي ؟ ولماذا يخاف «العجمي» من اشارة الصليب او يهاب الرجل المسيحي بهيئة الصوفي ؟ — وفي الحقيقة انني صادفت على طريقي احد المتصوفين اللابسين الصوف الابيض فرأيت صليباً صغيراً اخضر مرسوماً على عمامته . فتصوّر !

وقرية الصنمين تقوم مقام المدينة اليونانيّة الرومانيّة القديمة المعروفة بآيريا (Ἀῆρα) وفيها انقاض كثيرة يرقى عهدها الى ايام الرومان والعصور المسيحية الاولى . ومن اهم آثارها برجان ومعبد اسمه تيكايون بُني اكراماً لالهة السعد (Τύχη) وفيها آثار كنيسة ملوكية قديمة تدل على ان آيريا كانت مركزاً لكرسي اسقفي وفيها كنيسة مشيّدة على اسم مار مكاريوس

تبنه

موقعها شمالي طريق دمشق الكبرى تبعد عنها نحو عشر دقائق تحدُّها قرية القنية شمالاً بغرب على مسافة ثلاثة ارباع الساعة وقرية المحجة جنوباً بشرق على بعد نصف الساعة وقرية بصير شمالاً على بعد ساعة وربع ومثلها خبب شمالاً بشرق وقرية القفير جنوباً على بعد ثلاث ساعات

وسكانها كلهم مسيحيّون كاثوليك عددهم زهاء ٨٠٠ بيت منهم بيت عبيد وشناعة وبطرس والسهاونة اصلهم من مجيدل في لحف اللجا اضطرّتهم الفتن في اواخر القرن الماضي الى مبارحة بلادهم فاسكنهم هرلو باشا العابد اراضي تبنه . ومنهم بيت قبلان وكانوا يُعرفون سابقاً بجوعان واصلهم من حلب

وفي القرية مدرسة للذكور لها معلّمان . والاب راعي النفوس هو الخوري يوسف عسكر وقد سبقه في رعاية هذه الخورنية الاباء سليمان غبائن وابراهيم عرده والراهبان المخلّصيان صموئيل ريولس قسطنطين ثم عبدالله مرقس وعبدالله سهيل

ولم نجد في تبنه من الاثار الّا نصباً اشبه منه بالعمود المربع الزوايا علوه يقارب متراً ونصف وعرضه ٣٠ سنتمتراً عليه نقش قديم محيّ ولعلّ الوثنيين كانوا يقدّمون عليه مجوراً لاصنامهم

ويُري الاهارن في شمالي القرية على بعد ١٠ دقائق منها اثار معسكر ابراهيم بن

محمد علي باشا الذي اقام في جوار تبنه وبرز اليها الماء من الصنمين . وشهدت قرية تبنه بعض الحوادث المفجعة التي اثارها الامير فيصل بعد معركة ميسلون لما جاء الى درعا وحاول ان يلمّ فيها شعثهُ ليعود ويهاجم الافرنسيين فجمع المشايخ وتآمروا سرًّا على قتل نصارى حوران . وفي غضونها خرج الوزراء من دمشق الى حوران لمفاوضة العصاة ووقف القطار بهم في خربة النزالة فهاجمهم العرب وقتلوهم وتفرقوا في البلاد ينهبون قرى النصارى . حينئذ خرجت من دمشق قطارات مصفَّحة وتقدَّمت حتى محطَّة المحجَّة فقطع البدو الخط الحديدي امامها ومن ورائها وارتقوا سطح كنيسة تبنه وجعلوا يطلقون الرصاص منه على القطار واضطرُّوا اهل القرية الى الفرار ونهبوا اموالهم . وكاد الشر يتفاقم لولا قدوم الجيش الفرنساوي عن طريق غباغب فخاف العربان وولَّوا الادبار وعادت السكينة وساد الهدوء والامن

ولمَّا عاد اهل تبنة الى ديارهم وجدوها فارغة خاوية لا اثر فيها لاثاثهم واموالهم . ولم يشاؤوا ان يشكوا امرهم الى الدولة لئلَّا يثيروا الضغائن على انفسهم بل اجابوا الى طلب العصاة الذين تزلَّفوا اليهم ليحظوا بواسطتهم شفاعةً لدى العدل . وانَّما اتَّكلوا على الله لتعويض الاضرار التي لحقت بهم

على ان الله لم يهملهم لانهم عوَّضوا عمَّا خسروه بكدّهم واجتهادهم وتضافر بعضهم ببعض وما عتموا ان عادوا الى حالة الراحة التي كانوا عليها قبل الحوادث ووهب الله اراضيهم غلَّات كفأتهم مؤونة العوز وساعدهم اخوانهم في المهجر على اصلاح حال الكنيسة فدُهنت وردَّت اليها ايقوناتها

القنية

القنية قرية موقعها على مسافة ٥٠ دقيقة من تبنة شرقاً بشمال وجميع سكانها مسلمون لهم فيها جامع واسم شيخها محمود ابو رومية الجباوي . ومن زعمائها محمد الملخذي ومحمود البكر واحمد العوض والزعوني والطويق . وفيها مدرسة للذكور عليها معلّم واحد . واراضيها ٧٨ ربعاً وهي اخصب من اراضي تبنة . ولم أرَ فيها من الاثار القديمة الَّا بقايا صلبان منقوشة على باب بيت الشيخ

المحجّة

قرية اسلامية يقف القطار الحديدي عند محطتها الواقعة على ١٠ دقائق من بيرتها. يستحضر اهلها احجار الطاحون فيقتلعونها من جهات اللجا ويشحنونها على القطار الحديدي فتباع في دمشق

وسكانها يبلغ عددهم ١٤٠٠ نفس زعامتهم الشيخ عمر الطالب الحريري وسرور العتلة الصلخدي واهم حمولاتهم شحمه والمجاريش والسهاونه. وبين هؤلاء بطون وهم بيت العقده والجلده والواوي وكلهم صلاخده.

وجنوبي محطة المحجة فوق تلّ مزارُ «مقداد» للمسلمين. وفي القرية اثر جليل تدل بقاياه على انهُ كان كنيسة وهو عبارة عن مسكن واسع ذات اروقة سقفهُ واطى محمول على قناطر ذات عواميد نُقشت عليها رموز نصرانية. وابوابه مصاريعها من حجر كان السكان اتخذوهُ جامعاً لكنهم هجروه لجامع آخر ابتنوه وحصّنوه ليتحرّزوا فيه في وسط القرية من غارات الدروز لان بينهم وبين هؤلاء عداوة قديمة

ازرع

قرية كبيرة موقعها في شرقي الخط الحجازي بين المحجّة والغزالة وعدد سكانها نحو ١٢٢٥ المسلمون منهم ٧٠٠ واهم حمائلهم بيت عبيد ومنهم المختاران: نزال وعلي سليم. وبيت المنعلاني وأصلهم من ناحية غربي حماه. وبيت الجبارين وهم من جبا وبيت خالد وهم من بشرة عجلون التي فيها قاضي القضاة. وهو الشيخ حسين عمري الحريري. وازرع قائمقامية منذ ١٥ سنة والقائمقام منزله بالقرب من المحطة واسمه عبد القادر الكردي

وسكان ازرع الكاثوليك الملكيون يبلغ عددهم زهاء ٤٢٥ ومنهم ١٥ مهاجرًا بنيف ومن حمائلهم بيت العزام ولهم اقارب في مأدبا والسلط وجديدة مرجعيون والحصن انما اصلهم من ازرع. وبيت السالم واصلهم من هيت واليهم ينتمي بيت نصير وحوش وبيت خليل الديشان وابي غيث واصلهم من عيون وبيت الغريب. وخوري الكاثوليك الحالي هو حضرة الاب الياس نصير وسبقه في وظيفته الخوارنة

يوسف كامل وابراهيم سالم ويعقوب سالم

اما الروم فعددهم يزيد على المئتين وما بينهم ١٥ مهاجرًا ومنهم المختار وهو عوض يوسف زيدان واصل عائلته من برقين في جبل نابلس. وبيت شحاده وازرعي وابرهيم اسعد وجبران جباره. وكان للروم كاهن يتولى شؤونهم الدينية وهو الخوري يعقوب عساف مات نحو سنة ١٩٠٠ فاسسوا منذ ذاك الحين بلا راع. ثم جاءهم كاهن سنة ١٩١٩ وهو الخوري ايوب عويص العجلوني فخدم القرية ثلاث سنين ثم انتقل الى رحمه لعدم قيام الرعية بمعاشه

ومما رُوي لنا عن تاريخ ازرع ان ممدوح باشا سنة ١٨٩٦ (١٣١٢ رومي) فرّق دروز ازرع في الجبل وكان الدروز اصحاب اراضي ازرع لهم فيها ٣٦ ربعة كل ربعة مساحتها ٣٢٠٠ دونم. وبعد ان غابوا عن ازرع عاد البعض منهم اليها بعد ٢٤ سنة فاستردّوا دورهم. أما اراضيهم البالغة ١٥٧ ربعة فكانت الحكومة قد ضبطتها وآجرتها: حصتين ونصف حصة للمسيحيين اعني حصة لاهل العيون ونصف حصة للهياتنة والعزام وحصة للروم وحصة ونصف للاسلام

وفي ايام الحرب العظمى قدّم اهل ازرع للحكومة التركية في اول سنة ٣٥٠ مدًا من الحبوب وفي ثاني سنة ٢٥٠ وفي ثالث سنة من الخمسين الى الستين مدًا ونعامًا كثيرة

اما آثار ازرع القديمة فأكثر من ان يسعها نطاق هذه المقالة لانك اينما توجهت في البلدة رأيت كتابات يونانية منقوشة في الحجر وخاصةً بالقرب من الكنائس والبرج. فملأ رسومها صفحات عديدة من مؤلفات الافرنج الذين زاروا ازرع. على ان الاثر الاجلّ هي كنيسة مار جرجس فان الكتابة المنقوشة عليها تدل على انها بُنيت على معبد وثني للاله ثياندريت بنفقة حنا بن ديوميد احد اعيان ازرع الذي تراءى لهُ القديس جرجس بالحلم واوعز اليه ببنائها. ولعلّ ذخائر القديس وُضعت في الكنيسة. ولا يزال البناء في الحالة التي كان عليها لما شُيّد سنة ٥١٥ م وهذه الكنيسة تُعتبَر من اقدم البنايات التي صمدت في بلادنا على كوارث الزمان. وقنابل ابراهيم باشا لم تكد تؤثر فيها. أما رسمها فيشبه رسم كاتدرائية بصرى فهو مثمن الزوايا بصحن مربع والقبة فيها مركبة على قناطر. أما دائرتها الخارجية فيحدق بها رواق.

وفي اربع زوايا الكنيسة هياكل وفيها ضريح باسم القديس جرجس وهو موضوع اكرام المسيحيين والاسلام

دنيبه

تبعد قرية الدنيبة نصف الساعة عن محطة ازرع عرباً. ولولا قلة ارتفاعها وتمام عمارها لخلتها قلعة حلب اذا نظرتَ من بعد الى وجهتها الشرقية عدد سكانها ٣٠٠ نصفهم مسيحيون روم وينتمون الى بيت نصرالله ومنهم شيخهم واصلهم من ازرع هجروها منذ ثلاثين سنة . والنصف الآخر مسلمون وهم بيت الزعبيه . والاراضي مقسومة ثلاثة ارباع للمسيحيين وربع للاسلام وحصة المسيحيين عبارة عن اربعين ربعة

ولما كنت القي عظات الرياضة في ازرع استهديت على الطريق الى دنيبه فزرت شيخها المسيحي والتقيت ببعض الرجال فكلفوني ان آتي لأقيم بينهم الصلاة في بيت الشيخ وأسمعهم كلام الله لانهم كالخراف التي لا راعي لها ليس لهم كاهن وهم ابعد من ان يعتقد شؤونهم مطران الروم على حوران وهو مقيم في دمشق

فأجبتهم اني مستعدّ ان ابذل مجهودي في خدمة نفوسهم أن طلبوني من راعي الابرشية الشرعي السيد نقولاوس القاضي وكان اذ ذاك في شقرى . . . نوّر الله عقل هذا الشعب وبرك قلبه ليعرف الحق ويتبعهُ

وفي الدنيبة بعض الاثار منقوشة في الجدران تمثل طيوراً وهي رموز مسيحية تشبه ما رأيناه في قبور شفاعمر في الجليل الاعلى (راجع مقالة الاب رنفال (Mélanges de la Fac. Or., III, 33-43)

شقرى

كنا في ازرع لمّا وافانا كتابٌ من السيد المطران يدعونا الى شقرى لنساعده في سماع الاعترافات وهو كاد يختم الرياضة فيها . فلبينا دعوته وسرنا حتى دخلنا الكنيسة فاذا هي غاصّة بجمهور المؤمنين فقمنا بمهمتنا الرسولية

سكان شقرى كلهم مسيحيون يبلغ عددهم الاربعمائة ومنهم ٣٠ مهاجراً واخصّ بيوتهم بيت ابو زراع ورشيد وتراب وبدران وسهيل وعزام واصلهم من العيرن

وكنيسة شقرى قديمة العهد حديثة الترميم اعتنى بها السيد نقولاوس القاضي فشاد قبتها مراعياً في البناء اصول فنها . وهي على فقرها حقيقة بان تجتذب السياح الذين يؤمون سورية للاطلاع على آثارها . وفي شمالي غربيّ شقرى برجٌ جميل بني على قناطر اربع هبط سقفه من عهد قريب لسوء الحظ وبناؤه على الطرز السوري المعروف برصف المداميك بغير ملاط . يا ليت مصلحة الآثار في دمشق او بيروت تلفت نظرها الى هذه الانقاض الجليلة فتعتني بترميمها او بحفظها وتوجه اليها سير الزوار فتكون دولتهم في حوران جزءاً من سياحتهم الى الشام . وامر دخول حوران اصبح في غاية السهولة لان سكة الحديد تجتازه وطرقه تكاد تصلح كلها للسيارات

رسالة

الآباء اليسوعيين في حوران

اول من دخل منهم بلاد حوران لاعمال الرسالة في القرن التاسع عشر هو الاب بولس ريكادونا في اواخر سنة ١٨٣٤ . وارسم بعثة الاب هنزا (F. Henza) وذلك باغراء مقاصد الرسولي السيد يوحنا المعمدان اوزني (J.-B. Auvergne) وكان سأل هو والطيب الذكر المرحوم مكسيموس مظلوم المرسلين اليسوعيين في الشام ان يهتموا بشؤون الملكيين الكاثوليكيين في حوران لانهم ما كانوا رأوا مرسلين منذ اجيال . وكانت حالهم بغاية الانحطاط المدني والديني وكان المسلمون يعاملونهم معاملة الرقيق لا كهنة لهم ولا كنائس ولا مرشد يرشدهم ولا رادع يردعهم حتى كان الكثيرون يجهلون وصايا الله ويستبيحون القتل والسرقة شأن الاعراب في البادية

فلما ظهر الاب ريكادونا ورفيقه بينهم وقالا لهم انهما اتيا يتفقدان شؤونهم من طرف الاب الاقدس حرّكا القلوب حناناً وإعجاباً وكتب سكان قرية هيت الى الاب ريكادونا الرسالة الآتية :

« تعلم انا الفلان من الكاثوليك نسكن في البصرى وبطانية ونعيش بين العرب كالحملان بين الذئاب وليس لنا معلم يشع علينا ظلمات الجهل ولا طبيب يداوي جراحاتنا . اما اليوم وقد علمنا انكم اتيتم من جبل لبنان مرسلين من الكرسي الرسولي فاننا نوقفكم على احوالنا وانتم الآن اعلم بها . نقبل ايديكم مرة ثانية وثالثة »

وواصل الاب ريكادونا رحلته الرسولية الى جنوبي بصرى لكن الحتى كانت قد

تسلطت عليه منذ اسابيع فانهكت قواهُ فاضطرَّ للرجوع الى الشام

وفي ١٧ تشرين الاول سنة ١٨٣٦ تجهز الابوان بلانشه (J. Planchet) واستاف (R. Estève) (١ للتجوُّل في حوران والاطلاع على شؤونها. وكانت احوالها قد اصطلحت نوعاً منذ زيارة الاب ريكادونا . فوجد الابوان في قرية الهيت كنيسة للملكيين وكاهناً غيوراً يخدمها وكانت قرية نجران المؤلفة من ٤٠٠ مسيحي قد حظيت بكاهن جديد عوض كاهنها القديم المتوفى. انما كان محل الاجتماع للصلاة غير لائق وهو ضيق مهدوم السقف متداعي الجدران لا تزينهُ صورةٌ مقدسة الَّا ايقونة حقيرة وُضعت في كوة اتَّخذوها بمثابة هيكل . وكان اسقف حوران السيد كيرلس الصيداوي من الرهبانية المخلصية قد جاء حديثاً وسكن خبب وهي اعظم القرى المسيحيَّة في حوران ودعا اليه المرسلين وقد ذكرهُ الاب بلانشه فقال :

«قد استقبلنا الاسقف بنايةالرداد فوجدناه غيوراً على رعيته صبوراً على ضيق العيش وشظفهِ رغب الينا بالحاح ان نبقى عنده . واننا لوددنا لو اتيح لنا ان نقضي ايامنا بجنبته لشاطرهُ المتاعب والمشقات لكن ادير نا في لبنان تضطرُّنا الى الرجوع على ان امننا وثيق بانه سيقوم باعمال كثيرة تؤول الى خير ابرشيته

ولم ينفك المرسلون عن الجهاد في سبيل اولئك المسيحيين المهملين وكان الاب استاف يطبب المرضى . وكان الحورانيون ينقادون الى مرشديهم فيتعلمون حقائق الدين بسرعة

وفي الربع الاخير من القرن التاسع عشر تجدَّدت الدعوة الى الآباء اليسوعيين بفتح دير في حوران عن لسان السيد باسيليوس حجار وبواسطة جمعية انتشار الايمان فسافر الابوان نورمان (R. Normand) وبورتلي (R Portelli.) وبلغا جبل الدروز واستقصيا اخبار المسيحيين فسُرَّا بما رأياه فيهم من تقوى . وسذاجة اخلاقهم سواء كانوا من الكاثوليك او من الاخوة المنفصلين وقد تحققا ضرورة الانعكاف على تبشير هؤلاء الساكنين المتكمين في ظلمات الجهل باسرار الدين اذ لم يكن في كل حوران الَّا ٧ او ٨ كهنة يقتصرون همتهم على خدمة ستة من القرى . امَّا سائر

١) الاب استاف هو الذي اشتهر في لبنان وخصوصاً في بكفيا باسم الاب سليمان . وعُرف الاب بلانشه باسم الاب مبارك وأُرسل كقاصد رسولي الى ما بين النهرين

المسيحيين المتفرقين في القرى بين الدروز والمسلمين فليس لهم من يهتم بامور دينهم

فقرّ قرار الرؤساء على انشاء رسالة في حوران فتوجّه اليها سنة ١٨٨١ الاب ارسانيوس مرل (Merle) تمهيداً لافتتاحها. وفي غضونها كان الشعب هائجاً على راعيه السيد باسيليوس حجّار لزعمهم انهُ جمع في اوربّة واميركة حسنات واسعة لرعيّته لم يناهم منها شيء. فتهدّد اعيان الطائفة رئيسهم بالانفصال وانحاز البعض منهم قولهم بالفعل

فما ظهر الاب مرل بين الحورانيين الّا وهدأت الخواطر واخذت المياه تعود الى مجاريها. وانضمّ المرسلون الى السيد المطران لاحياء الحياة الدينيّة بينهم بانشاء المدارس وتدبير شؤون الكنائس ففتح الاب مرل مدارس في قرى خبب وتبنه والهيث في شمالي جبل الدروز. ثم رمى بنظره بعيداً وامل انه يستميل قلوب الاعراب في البادية فاقام مدرسةً لقبيلة بني هجين المجاورة للمسيحيين

ولما حان الوقت لانشاء دير في حوران نظر الاب مرل الى قرية في وسط اللجا تسمى الدامة العليا وكان فيها زهاء عشر أسر مسيحية واربعين درزية فاقام فيها مركز الرسالة ودعا الدير الحديث دير سيدة النور. وافاه الاخ الياس حتوش ليساعده بتدبير شؤون الرسالة ثم اتاهما كاهن ثالث فاصبحا ثلاثة في ديرهم

واخذ كرم الرب يأتي بثمار شهية فكان كل من الاباء يغيب بدوره ليتفقد احوال الرعية ويتجوّل في القرى فيلقي عظات الرياضات ويسمع الاعترافات ويزور المدارس ويتداول مع الحوارنة فيما يخص مصالحهم. وكادت تلك الحركة المباركة تسير سيرها الحسن لولا الفتن التي حالت دون مواصلتها

من المعلوم ان دروز حوران دخلوا الجبل اثر مذابح الستين حيث اضطروا الى الفرار الى اللجاء لينجوا مما كانوا مستحقّةً من العقاب لفتكهم بنصارى لبنان. على ان حلولهم في سهول حوران ما عتّم ان نفّر قلوب العرب القاطنين في تلك الاصقاع لما جرى بين الفريقين من المزاحمة على استثمار غلات الارض فادّى النفور الى اشهار الحرب بينهما

وحفظ الاباء المرسلون الحياد في تلك المعمعة واقتصروا على مداواة الجرحى والمرضى. ومما يستحق ذكره ما كتبه اذ ذاك الاب مرل وكانت الضرورة قد الجأته

الى مزاولة الطب والجراحة فكثيراً ما كان يسحب الرصاص من الاعضاء ويقطع في ذات اللحم قال :

« ما من جريح تسهل مداواته على طبيب كالدرزي المكلوم . اقطع اقلع فكأنك تعمل بجسد ميت لان الدرزي يعتبر اظهار شعور الالم عاراً . فان مات قيل : ساعته المحتومة وان شفي قيل : نجمه . الا اننا كنا نألم لرؤيتهم يموتون براحة الضمير التامة كأنهم من الابرار الصالحين . عبثاً كنت احرّضهم على الندامة فكانوا يسمعون كلامي كأنهم يحلمون . وربما كان السبب لرباطة جأشهم اعتقادهم بان الموت ليس الا تقمصاً . فان هم ليسوا باطهار فسوف يقضون حياتهم ثانية في ذات البلاد التي ماتوا فيها وان هم بلغوا الكمال فتكون بلاد الصين مصيرهم حيث يجتمع الدروز الكاملون وسوف يخرجون منها تحت قيادة المهدي ليفتحوا الارض ويملكوا على سائر الامم مدى الابد »

ولما اصبحت قرية الدامة العليا وجوارها ميداناً للقتال بين الدروز والاعراب وغدا المرسلون غير آمنين على حياتهم في ذهابهم الى دمشق وايابهم منها وهي التي كانت تمدهم بموارد المعيشة الجأتهم الحالة الى نقل ديرهم الى محل اخر . وفي ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٨٧ شدّ الاباء رحالهم وساروا بقافلة عدت ٢٥ جملاً الى قرية نجران وحلّوا فيها وعادوا يواصلون اعمالهم الرسولية . وبلغ صيتهم احد مشايخ عربان البادية فارسل اليهم يدعوهم الى زيارته فاعتذر الاب مرل وقدم للشيخ صحبة رسله كتباً عربية بصفة هدية

على ان الحكام الاتراك جعلوا يتشاءمون من نفوذ المرسلين في حوران فدسّوا الدسائس واخذوا يعرقلون سير اشغالهم ويهيجون القوم عليهم بينما كان سفير فرنسة في الاستانة يبلغهم انه سوف لا يحرك ساكناً في سبيل حمايتهم . فما اقاموا عامين في نجران الا اضطروا ان يجلوا عن البلاد ويعودوا الى دمشق ليجعلوا فيها مركز الاب الذي يُعهَد اليه فيما بعد امر تفقد شؤون مسيحيي حوران

تتابعت السنون منذ ذاك حتى ايام الحرب العظمى حيث طُرد المرسلون الافرنج وحكم على الباقين في البلاد بالانحجاب وتعطّلت اعمال الرسالة في حوران . ولما حطت الحرب اوزارها وعاد الاباء الى ديورهم طلب السيد نقولاوس القاضي من الاب العام تسليم امر المدارس الى احد المرسلين مع مهمة تفقّد احوال الشعب الدينية . فتعيّن الاب بيليسيه كزائر لمدارس حوران . وفي صوم السنة الحاضرة أُوفد اثنان من

اليسوعيين لاقامة حظات الرياضات في القرى

ولعلّ امر انشاء دير في حوران كان دخل في حيّز العمل لولا الحوادث الاخيرة التي اوقفت مجرى الاعمال . على اننا لا نريد ان نختم هذه النبذة من دون ما نذكر اسمي الابوين دي لاموط (de la Mothe) وفولوا (Foulloy) الشابين اللذين جاءا الشرق للقيام بالخدمة العسكرية وهما يعلمان في كلية القديس يوسف فلمّا ثارت الفتنة واضطرتها الى حمل السلاح سارا مع الحملة العسكرية للقيام بواجبهم الوطني . فوقعا ضحية الواجب والشرف في اول موقعة جرت بين الدروز والافرنسيين

ونرفع الى ذويهما الكرام عواطف عزائنا واعجابنا بالشهامة الافرنسية الا اننا نتعزى لعلمنا انهما بدمهما الطاهر قد عملا في سبيل تحرير النفوس من رقّ الخطيئة اكثر من الذين قضوا سنين في الرسالة لانه ما من محبة اعظم من ان يبذل الانسان نفسه حبًّا بالله وبالقريب . وقد بذلا حياتهما لاجل خلاص النفوس التي من اجلها حملا السلاح طاعةً لارادة الله كما صرّح الاب دي لاموط في كتاب حرّره بضعة ايّام قبل وفاته . وحيث تُربت الارض دم الشهداء هناك تأتي بثارها العزيزة حقق الله الآمال

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الرابع

تاريخ بيروت في عهد ممالك مصر (١٢٩١—١٥١٥) (تتمة)

وفي أيام الاشرف ناصر الدين شعبان سنة ٧٦٧ (ايلول ١٣٦٥) غزا ملك قبرس هوغو الرابع دي لوسنيان ثغر الاسكندريّة في سبعين مركباً ودخلوا المدينة ونهبوا اسواقها وبيوتها وقتلوا جماعة من اهلها وحرقوا باب رشيد ثمّ اقلعوا الى جزيرتهم . فارسل